

الاستيطان والهجرة في القرى الأثرية في شمال سورية خلال العصرين الروماني والبيزنطي

مأمون عبدالكريم

قسم الآثار

كلية الآداب

جامعة دمشق

الاستيطان والهجرة في القرى الأثرية في شمال سورية خلال العصرين الروماني والبيزنطي

مأمون عبد الكريم

قسم الآثار

كلية الآداب

جامعة دمشق

تنتشر القرى الأثرية في الكتلة الكلسية الممتدة من حدود تركيا حالياً في الشمال حتى منطقة أفاميا جنوباً، ومن سهل الغاب غرباً حتى سهول حلب وقنسرين شرقاً، بطول ١٥٠ كم وعرض ٧٠ كم تقريباً. (الشكل ١)

وهي عبارة عن سلسلة من القرى التي يتجاوز عددها السبعمئة، تنتشر على جبال سمعان، الحلقة، باريشا، الأعلى، الوسطاني، الدويلي، الزاوية. تتميز هذه القرى بأنها ما تزال تحتفظ بحالتها المعمارية الممتازة التي قاومت عوامل الطبيعة والتخريب حتى الآن في حين لم يبق أي أثر على السطح في السهول المجاورة. يعزى الأمر إلى استمرار سكن قرى السهول التي تجددت مساكنها دون انقطاع، في حين أن هجرة قرى الكتلة الكلسية ابتداء من القرن الثامن وصلابة المباني الحجرية فيها سمحاً بحفظها وبقائها.

إن هذه المواقع رغم أهميتها ليست سوى قرى حيث لا يتواجد فيها أية تحصينات كما هو ملاحظ في عمارة المدن وكذلك الأمر بالنسبة إلى تخطيط الطرق والشوارع فهي غير نظامية، وهي عبارة عن أزقة تمتد بشكل عشوائي في جهات مختلفة، لا يتواجد فيها أي شكل من أشكال الأبنية العامة. وتبقى الحمامات التي استمرت كمجالس اجتماع وحيدة هي المنتشرة في هذه القرى، وقد شيدت على نفقة بعض المزارعين الأغنياء لأهل القرية^١. (الشكل ٢)

بنيت وسكنت من قبل فلاحين ذوي أصول آرامية قدموا من السهول المجاورة كما دلت على ذلك الكتابات الحجرية المكتشفة التي تحمل أسماء لمواقع وأشخاص آرامية الأصل. بعد ذلك تعلم هؤلاء الفلاحون اللغة اليونانية، التي كانت لغة السلطة الحاكمة والنخبة المدنية طيلة ألف سنة، امتدت منذ اجتياح الاسكندر المقدوني وحتى الفتح العربي - الإسلامي للمنطقة.

الاستكشافات الأثرية:

بدأت الاستكشافات الأثرية في هذه القرى منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وقد أشار إلى هذه القرى الكونت دوفوغويه (M. De Vogüé) في كتابه "سورية المركزية، عمارة مدنية ودينية من القرن الأول إلى القرن السابع الميلادي"^٢. ومع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين قامت بعثة أثرية أمريكية من جامعة برنستون (Princeton) بإدارة العالم باتلر (H.C.BUTLER) بدراسة بعض هذه المواقع ونشرت عنها دراسات قيمة صدرت تباعاً أهمها "الكنائس الأولى في سورية"^٣. ثم جاءت دراسات الجامعة اليسوعية في لبنان بإدارة العالم جوزيف ماتيرن (J.MATERN) وصدر عنها كتاب بعنوان "المدن الميته في شمال سورية"^٤. وفي مطلع الثلاثينات من القرن العشرين أجرى جورج تشالينكو (G.TCHALENKO) دراسات معمقة غيرت بعض المفاهيم التي كانت سائدة قبله

ولاسيما تلك المتعلقة بمصطلح المدن الميئة الذي ألغاه واعتمد مصطلحاً جديداً في كتابه الذي نشر تحت عنوان "القرى القديمة في شمال سورية"، كانت هذه الدراسات الأولى التي شملت جميع العناصر المكونة لهذه الأرياف وما تزال حتى الآن أحد أهم أركان الدراسات الحديثة حول هذه القرى. كما قدم جاك لاسوس (J.LASSUS) في نفس الفترة بعض الدراسات المتعلقة بالكنائس وجاءت دراسته الهامة حول الكنائس المسيحية في سورية لتوضح للمرة الأولى تحليلاً لبعض الممارسات الدينية فيها اعتماداً على الملاحظات الأثرية^٦.

ثم جاءت الدراسات الحديثة التي بدأتها البعثة الأثرية الفرنسية بإدارة جورج تات G.TATE الذي قام بدراسة وتحليل الأهمية الاقتصادية والاجتماعية لفهم تطور القرى في شمال سورية معتمداً على تحليل المعطيات التي جاء بها تشالينكو مضيفاً إليها المعطيات الأحدث ومستخدمهاً منهجاً علمياً جديداً للوصول إلى فكرة جديدة حول تطور الكتلة الكلسية بين القرنين الأول والسابع الميلاديين^٧.

كما أجريت دراسات جديدة تحت رعاية المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى حول المعابد والكنائس والقبور والمعاصر والحمامات والبيوت، مع برامج مبتكرة وجديدة في الجغرافية والجيولوجية وعلم التربة، وبعض الجوانب المناخية أو البيئية. وتم افتتاح عمل بعثتين أثريتين، إحداها في سلاسل الجبال الشمالية في داحس، والأخرى في سرجيلا في جبل الزاوية. ومنذ عام ١٩٩٤ أصبحت البعثة بعثة مشتركة سورية فرنسية بإدارة جورج تات من الجانب الفرنسي ومأمون عبد الكريم من الجانب السوري.

استيطان القرى:

بدأت حركة استيطان واستصلاح الأراضي الجبلية من قبل الريفيين الذين قدموا من السهول المجاورة منذ مطلع القرن الأول الميلادي وذلك عندما أصبحت الأراضي قليلة وغير متوفرة في السهول بسبب الزيادة في عدد السكان التي ساعد عليها السلم

الروماني (بين القرنين الأول والثالث) ثم السلم البيزنطي (بين القرنين الرابع والسادس). وبسبب التزايد السكاني لهؤلاء الريفيين وبفضل الحصول على مزارع جديدة ازداد غناهم، خاصة خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين معتمدين على زراعة الزيتون والكرمة كما زاد إنتاجهم للزيت والخمر والثمار واللحوم وبيعها في أسواق الضيع والمدن المجاورة^٤. وبالتالي أدى ذلك إلى تطور كبير في الفن المعماري لهذه القرى فظهر البناءون و ناحتوا الحجارة أو عمال المقالع لكي يزيّدوا من عائداتهم.

وقد عاشت هذه القرى مرحلتين هامتين من التطور:

المرحلة الأولى: تمتد من القرن الأول وحتى منتصف القرن الثالث الميلادي. وتوقفت بسبب الأوبئة والكوارث التي ضربت المنطقة.

المرحلة الثانية: تقع ما بين القرن الرابع وحتى منتصف القرن السادس الميلادي وفيها شهدت القرى تزايداً كبيراً في عدد السكان وازدادت ثرواتهم في إطار توسعهم العمراني حيث تكاملت المدن مع الأرياف في الثروة .

لقد عرفت هذه القرى نهضة معمارية خلال العصرين الروماني والبيزنطي حيث نجد فيها أنواعاً عديدة من المباني الأثرية: المنازل والمعابد، والكنائس، والأديرة، ودور الضيافة، والمعاصر، والمدافن ... الخ.

تميزت المباني السكنية في هذه القرى بالغنى من الناحية المعمارية اتسمت مساقطها في طابعها العام بالبساطة إذ تتألف من طابقين أو أكثر محاطة بجدار خارجي ذو بوابة كبيرة، استخدمت غرف الطابق الأرضي منها كمستودعات للتخزين ولإيواء الحيوانات أما الطابق الأول فقد استخدم للسكن، وتتقدم هذه الغرف أروقة محمولة على أعمدة مزينة بتيجان متنوعة. كما تم استخدام عناصر متنوعة من الزخرفة مثل الحلي والأفاريز والشرائط المنحوتة في الحجر الكلسي في تزيين المباني خاصة على

سواكف الأبواب والنوافذ، كما أعطتنا نتائج التنقيبات التي أجريت في مواقع عديدة مثل سرجيلا وداحس الكثير من الأفكار حول تطور المباني السكنية في هذه المنطقة خلال العصرين الروماني والبيزنطي.^٩

أما المعابد المتواجدة على قمة جبل شيخ البركات وجبل سرير وباقرحا وكالوطة والعائدة إلى القرن الثاني، لازالت آثار هذه المعابد موجودة حتى الآن، حيث بنيت خارج القرى على عكس المعابد في جنوبي سورية. إذ تحولت بعض المعابد إلى كنائس مثل كالوطة أو أهملت و تحولت إلى مقالع خلال العصر البيزنطي.^{١٠}

ظهرت الكنائس منذ القرن الرابع الميلادي وهي ذات مساقط مختلفة تتميز بغناها بالعناصر الزخرفية، حيث نجد في كل قرية كنيسة أو أكثر مثل قرية البارة أو براد. من أهم الكنائس في هذه المنطقة كنيسة "قلب اللوزة" التي تعود إلى القرن الخامس الميلادي ولازالت تحتفظ بشكلها المعماري حيث تتميز باحتوائها على السمات العامة لعمارة الكنائس في شمال سورية، المبنية وفق المخطط البازيليكي و المزودة ببرجين في واجهة الكنيسة، حيث تحتوي على عناصر زخرفية مؤلفة من أشربة الحلبي التي تلتف حول المبنى و التيجان الجميلة. كما تم اعتماد أسلوب التناظر لفتحات الكنيسة من الأبواب والنوافذ. و لدينا أيضاً كنيسة سمعان العمودي المبنية على شكل صليب والمؤلفة من أربع أجنحة بازيليكية تلتقي مع بعضها في ساحة مئمنة الشكل يقع في وسطها العامود الأسطواني وكان قد وضع في أعلاه مصطبة خشبية عاش عليها سمعان العمودي سنوات عمره الطويلة في الصلاة والوعظ ومعالجة المرضى، إذ جمع العامودي بين حياة الناسك المنعزل، وبين حياة الواعظ والمرشد. ويعد من أشهر العاموديين حيث عاش على العامود ٣٧ عاماً بين عام ٣٩٠-٤٥٩ م، ثم تحول ذلك المكان إلى مجمع ديني ضخم خلال العصر البيزنطي ومركز جذب ديني يحج إليه المسيحيون من مناطق مختلفة في العالم خلال العصر البيزنطي.

كما بدأت تظهر الأديرة في هذه المنطقة منذ القرن الرابع عندما توقف اضطهاد المسيحيين، وأصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة، حيث تسارع بناء الأديرة خلال القرن السادس وتم إحصاء ٥٧ ديراً في جبل باريشا و ٣٥ في جبل الأعلى. تركزت نشاطات الرهبان على العلاقات الدينية و العمل الزراعي^{١١}.

تميزت العمارة الجنازية بأهمية كبيرة من ناحية المخططات و الزخرفة حيث نجد الكثير من الأشكال المعمارية مثل المدافن الهرمية "قرية البارة" أو على شكل معبد في "قرية الرويحة" أو تكون محفورة في الصخر كما في "قرية القاطورة" ولدينا قبة مثلثية على أربع أعمدة نجدها في قرية براء، كتب على العديد منها أسماء أصحابها، كما أن هناك الكثير من الأشكال المعمارية الأخرى للمدافن^{١٢}.

أما الحمامات العامة، الموجودة في العديد من القرى، مثل براء، سرجيلا، البارة، آلية عمل وتطور للحمامات خلال العصرين الروماني والبيزنطي، إذ تمثل حمامات سرجيلا، النموذج الأوضح للحمامات المحلية، حيث تم اكتشاف لوحة فسيفسائية كبيرة، كُتِب عليها باللغة اليونانية تاريخ بناء الحمام في سنة ٤٧٣م. يتألف المبنى من قاعة كبيرة يعلوها رواق كانت تستخدم كقاعة للملابس وصالة عامة لاجتماع أهالي القرية فيها. هذه القاعة توضح أهمية الحمام ليس كمكان للاستحمام فقط بل أيضاً مكان لاجتماع أهل القرية مما يعطي طابعاً اجتماعياً لهذا المبنى. أما القسم الثاني فهو مخصص للاستحمام يتألف من مجموعة غرف، ساخنة، فاترة ثم باردة^{١٣}.

كما أظهرت دراسة مجموعة من معاصر الزيت، في الكتلة الكلسية، خاصة في القرى الواقعة إلى الشمال منها، أحصيت بضعة مئات من هذه المعاصر، وهذا ما جعل العلماء والباحثون يعزّون تطور قرى الكتلة الكلسية إلى زراعة الزيتون^{١٤}. وأخيراً فقد تم دراسة أنظمة المياه في هذه المنطقة من خلال مسوحات أثرية وجيولوجية شملت كافة القرى في جبل سمعان وجبل الزاوية وقد وضحت تلك المسوحات وجود أكثر من

شكل لنظام التغذية بالمياه على عكس ما كان يعتقد حول تخزين الناس لمياه الأمطار فقط لتأمين مياه الشرب^{١٥}.

هجرة القرى:

تعددت الأسباب التي أدت إلى هجر هذه القرى، أوجزها العلماء بمجموعة من العوامل منها:

حدث تغير في منتصف القرن السادس الميلادي في الاكتفاء الاقتصادي نتيجة للزيادة السكانية الكبيرة، وقلة الثروة مما أدى إلى دخولها مرحلة من جمود اقتصادي تسبب في انتشار الفقر والأوبئة. كما أن الأحداث العسكرية التي عاشتها هذه المنطقة والمتمثلة بالغزوات الفارسية التي ضربت أنطاكية وأفاميا في القرن السادس، والهزات الأرضية وسنوات الجفاف التي عاشتها أثرت سلباً على الحياة في هذه القرى، وبذلك توقفت عملية الإعمار مع بقاء هذه القرى مأهولة بالسكان. مع مجيء الفتح الإسلامي لم يطرأ أي تغيير على الحياة الريفية لهؤلاء السكان الذين بدؤوا يهجرون قراهم في مطلع القرن الثامن الميلادي حيث استمرت معاناتهم بل وازداد ضعفهم بسبب ضعف التجارة معهم وقلة الطلب على منتجاتهم.^{١٦} والجدير بالذكر أن المنطقة تحولت إلى منطقة حدودية بين الدول العربية الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية وقد استمر هذا الركود الاقتصادي حتى القرن العاشر مما دفع السكان إلى هجرة قراهم ولم تعد الحياة إلى المنطقة بشكل فعلي وجزئي إلا في القرن التاسع عشر.

على الرغم من أهمية العوامل المذكورة سابقاً فإن العامل المائي هو العنصر الأهم في مسألة الهجرة، والذي لم يتم التركيز عليه في الأبحاث الماضية بسبب الفرضية التي كانت موجودة سابقاً حول طريقة تزود السكان بالمياه في المنطقة خلال العصور القديمة واعتبرت لوقت طويل على أنها موارد متعلقة بمعدلات الأمطار حيث كانت تخزن المياه الجارية في الخزانات المحفورة في الصخر^{١٧}. وفي الواقع، كان الفلاحون

يعتمدون العديد من الانبثاقات المائية، وضمن هذا الإطار قمنا بمسح شامل لجميع المنشآت المائية الموجودة في قرى جبل سمعان في الشمال وقرى جبل الزاوية في الجنوب، حيث تركزت دراساتنا خلال تلك المسوحات، على دراسة المنشآت المائية من وجهة نظر أثرية بحتة بهدف تصنيفها من حيث الشكل، وطريقة التزود بالمياه، وقد ترافقت الدراسات الأثرية مع الدراسات الجيولوجية من قبل علماء في الجيولوجيا وذلك لفهم المقاطع الجيولوجية التي تشير إلى وجود المياه، وبالتالي توصلنا من خلال هذه المسوحات إلى تصنيف المصادر الطبيعية الهامة للتزود بالمياه بما يلي:

أ- الآبار التي وجدت بغزارة في الكتلة الكلسية في مناطق البروز الكلسي أو في المناطق البازلتية بينما تكون نادرة جداً في المناطق الحوارية، وهناك نوعان من الآبار:

١- آبار عادية : وتقع حول القرى الصغيرة بالقرب من السكن وتتبعثر في أماكن أكثر أهمية كما في سرجيلا بعمق ٢-٣ م.

٢- الآبار المبنية : وهي ذات أعماق ٨-٣٠ م ويتم تلبيس جدرانها الداخلية بحجارة منحوتة (سرجيلا- البارة- وفي الأودية الواقعة في محيط قرىتي برج حيدر- كالوطة..) وهي كثيرة في السهول البازلتية المحيطة بالكتلة وهذا ما نراه في قرية تل دينيت. (الشكل 3+4)^{١٨}

ب- الخزانات: مصدر الماء الثاني والأساسي حيث كانت تبنى جدران الخزانات الداخلية من كتل حجرية كتيمة أو تكون مطلية بالكامل بمادة عازلة، وتغطي بسقف مقنطر أو مستوي، يجمع فيها ماء المطر ويمكن رؤيتها داخل القرى وإلى جوار البيوت لها فتحة أو فئتين دائريتين، تتخذ الخزانات شكل مستطيل أو شكل إبريق. لها أنواع عديدة منها، الخزانات الكبيرة التي تكون على شكل غرفة تحت سطح الأرض ذات حجم كبير مبنية من الحجارة وسقفها محمول على الأعمدة،

ومزودة بدرج لتطيفها، كذلك الموجودة في قرية سرجيلا- كفر شلايا (الشكل ٥). ولابد من الإشارة إلى أن بعض الخزانات تستفيد في تغذيتها بالماء من الآبار القريبة منها. هذا وتعتمد إقامة الخزانات في مكان ما دون آخر على الطبيعة الجيولوجية للموقع والوضع الطبوغرافي والمورفولوجي وطبيعة الأرض المحيطة به^{١٩}.

ج- الينابيع: تتواجد في المناطق التي تتميز بوجود الصدوع مثل نحلة وكفر زيتا. (الشكل ٦)

نلاحظ وجود علاقة بين مراكز القرى و مناطق تواجد المياه، حيث يمكن تصنيف توزع القرى وفق جيومورفولوجية المنطقة إلى ما يلي :

١- قرى تقع في المناطق الكلسية:

أ- قرى واقعة على الهضاب : وهي كثيرة تكون عادة من الحجم المتوسط والصغير مثل قرية خربة الأسدية وباسيلييه في جبل الزاوية في مناطق يصل ارتفاعها إلى حوالي ٦٥٠ متراً، فوق سطح البحر. مشرفة على الوديان المحيطة وتكون الطبقات الكلسية أو الجيرية أفقية أما الآبار فهي عادة قليلة العمق حوالي ٥٠م.

ب- قرى واقعة في الوديان : مثل قرية سرجيلا حيث يوجد نوعان من الآبار :

١- آبار قليلة العمق تقع على الأطراف والأجزاء العليا من أطراف الوادي وهذا دليل على وفرة المياه الجوفية.

٢- آبار عميقة تقع في عمق الوادي حيث تتوفر المياه. ونجد هذا النوع أيضاً في الأودية الواقعة على محيط قرنتي برج حيدر وكالوطة في جبل سمعان ويصل عمق هذه الآبار إلى حوالي ٣٥ متراً.

ج- قرى واقعة في منطقة الصدوع: تتوفر فيها المياه على شكل ينابيع وهذا ما نلاحظه في مركز جبل الزاوية الأمر الذي ساعد على استمرار الحياة في تلك القرى عبر العصور (أريحا- كفر زيبا-نحلة-كفر حايا-كفر لاطة-بينيدة-خربة أبو شميا الخ).

٢- قرى تقع في المناطق الحوارية:

لا تبنى في هذه المنطقة بيوت أو آبار لأن نوع الصخر فيها هش وظري ومسامي وبالتالي لا يقاوم العوامل الطبيعية كالاحت والمطر مثلاً، كما وتتهار جدران الآبار فيها بسرعة عدا المناطق التي تكون طبقة الحوَار فيها قليلة حيث نجد آباراً تحفر في المناطق التي يشكل الحوَار فوقها طبقة رقيقة جداً، وفي مناطق التماس بين المناطق الحوارية والكلسية وقد نجد فيها معاصر وورش زراعية قائمة قرب مناطق إنتاج الزيتون والعنب.

٣-قرى واقعة في المناطق البازلتية:

هذه المناطق غنية بالمياه لوجود جبوب مائية ذات حجم كبير تحت سطح الأرض، بقيت هذه القرى مأهولة عبر العصور وتكون واقعة على محيط الهضاب الكلسية مثل ما نراه في قرية تل دينيت المعروف بموقعه الأثري العائد إلى عصور سابقة للعصور الكلاسيكية وقد تم دراسة العشرات من الآبار القديمة المتميزة بأشكالها المعمارية المختلفة، لا تزال هذه الآبار تستخدم حتى يومنا هذا من قبل سكان المنطقة^{٢٠}.

لذا فإن توزع القرى في الكتلة الكلسية مرتبط بعدة عوامل هي:

- ١- توفر المياه اللازمة لحياة الناس وتربية الحيوان وصناعة الخمر والزيت وقيام بعض الزراعات المروية للاستهلاك المحلي بالإضافة إلى الاعتماد على الزراعة البعلية بشكل أساسي مثل زراعة الزيتون والكرمة ...

٢- توفر الأراضي الزراعية.

٣- وجود طرق للمواصلات تؤدي إلى مناطق النشاط الزراعي.

لذا نرى بأن الفرضية القائلة بأن الناس كانوا يعيشون بشكل أساسي على مياه الأمطار المتجمعة ضمن الخزانات المحفورة في الصخر غير دقيقة لأننا وجدنا من خلال المسوحات التي تمت في تلك القرى أشكالاً أخرى من المنشآت المائية من آبار جوفية بأعماق مختلفة ووجود الينابيع في العديد من المناطق، ويبدو أن الباحثين في الدراسات السابقة اعتبروا من خلال دراسة الشكل الخارجي بأن تلك المنشآت هي خزانات لتجميع مياه الأمطار. ولكن معاينة تلك المنشآت بشكل دقيق ودراستها ضمن المناطق التي تتواجد فيها جيولوجياً تؤكد بأن الناس كانوا يعيشون بالإضافة إلى مياه الأمطار على المياه الجوفية.

لقد ترسخت استراتيجية حجز وتخزين الماء اعتماداً على شبكات الآبار والأقنية الممتدة بين التضاريس والمضبوطة تماماً. وهكذا فإن التنقيبات الأثرية في قرية سرجيلا دلّت على أنه تم تشييد الكنيسة في جوار شق أو صدع صغير حيث كان تجويفه تحت الأرض يمتلئ بتدفق المياه إليه، تستخدم في إطار الممارسات الدينية، وبالطريقة نفسها استفادت المعصرة الكبيرة في سرجيلا من وجود قناة مياه نقيّة لصناعة الزيت. حيث كان السكان يستمرون في حفر الخزانات في باحات بيوتهم لجمع المياه النازلة من السقوف.

وإضافة إلى استخدام الخزانات الخاصة كانت تضاف تجهيزات مائية ذات استخدام جماعي، مثل الخزان الكبير المحفور في سرجيلا الملاصق للحمام. حيث تتجمع فيه الأمطار في هذا الحوض الكبير الذي تصل سعته إلى ٨٠٠ م^٣. كان الخزان المحفور في الصخر على عمق سبعة أمتار بمساحة تقدر بحوالي ٢٠٠ م^٢، يستخدم كحوض لحجز المياه ضد مخاطر الفيضان في الوادي ويتكون غطاؤه من نحو مائة قطعة

حجرية مستطيلة تستند على اثني عشر قوساً من حجارة مشدبة بحيث تتوضع الأقواس مثنى مثنى. أما الجدران الداخلية للحوض فكانت مغطاة بإكساء مؤلف من كتل من الفخار سُدت الفراغات بينها بالصلصال، ثم كسيت بطبقة سميكة من الكلس المائي (الشكل ٧).

وكانت هذه التجهيزات المائية، المغلقة أحياناً على المساحات البيئية والمفتوحة أحياناً على الأقسام المشتركة للقرية، تسهم في إقامة علاقات الجوار وفقاً للممارسات والاستخدامات الخاصة بكل مجتمع قروي.

لم تعد الآبار مغذاة بالماء كما كانت سابقاً باستثناء العميقة منها التي مازالت تعمل بالضخ الكهربائي في أيامنا هذه. أما أسباب انقطاع الماء في الآبار فيعود إلى مايلي :

١- إما تحركات تكتونية مثل ارتفاع الطبقات الجيولوجية مما يعمق نظام القنوات تحت الأرض.

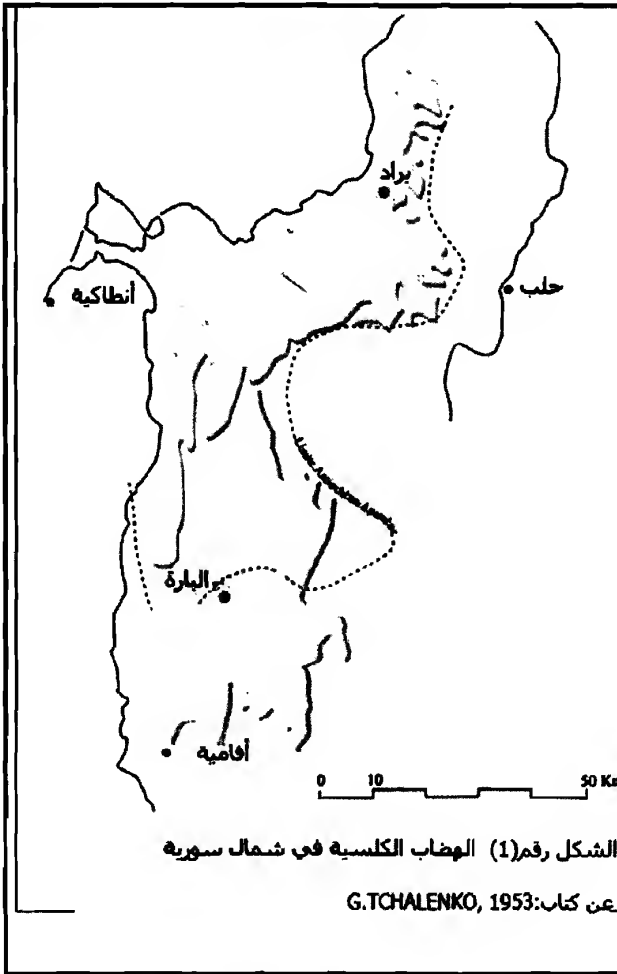
٢- أو انسداد القنوات الصغيرة التي تقع في الآبار الأقل عمقاً على سطح الهضاب وأطراف البروزات حيث هذه القنوات قليلة وهشة وتتسد بمخلفات الحت الأرضي مثل الحصى كما تؤثر الزلازل في عملية تصدع القنوات وسدها.

لعبت الأسباب السابقة وخاصة الزلازل دوراً مخرباً على منظومة المياه في المنطقة وبشكل خاص على الأبنية الطبيعية الموجودة تحت سطح الأرض التي كانت تغذي تلك المنشآت وبالتالي أدت إلى هبوط مناسيب المياه وإلى جفاف الآبار. ونعتقد أن الجفاف الذي عرفته تلك الآبار كان أحد الأسباب الرئيسة في الهجرة من أغلب القرى عبر فترات طويلة لأنه من غير الممكن العيش فقط على مياه الأمطار والتي لا تكفي لكل احتياجات القرية اللازمة من الشرب والاعتسال وتربية الحيوان وصناعة الزيت والخمر وكذلك النشاطات المرتبطة بالعمارة والزراعة والحمامات العامة، لذلك لا

يمكن القيام بها معتمدين فقط على مياه الأمطار ولا ننسى بأنه من الغير الممكن صحياً الاعتماد على مياه الأمطار في الشرب في سبعمائة قرية خلال ستة قرون متتالية.

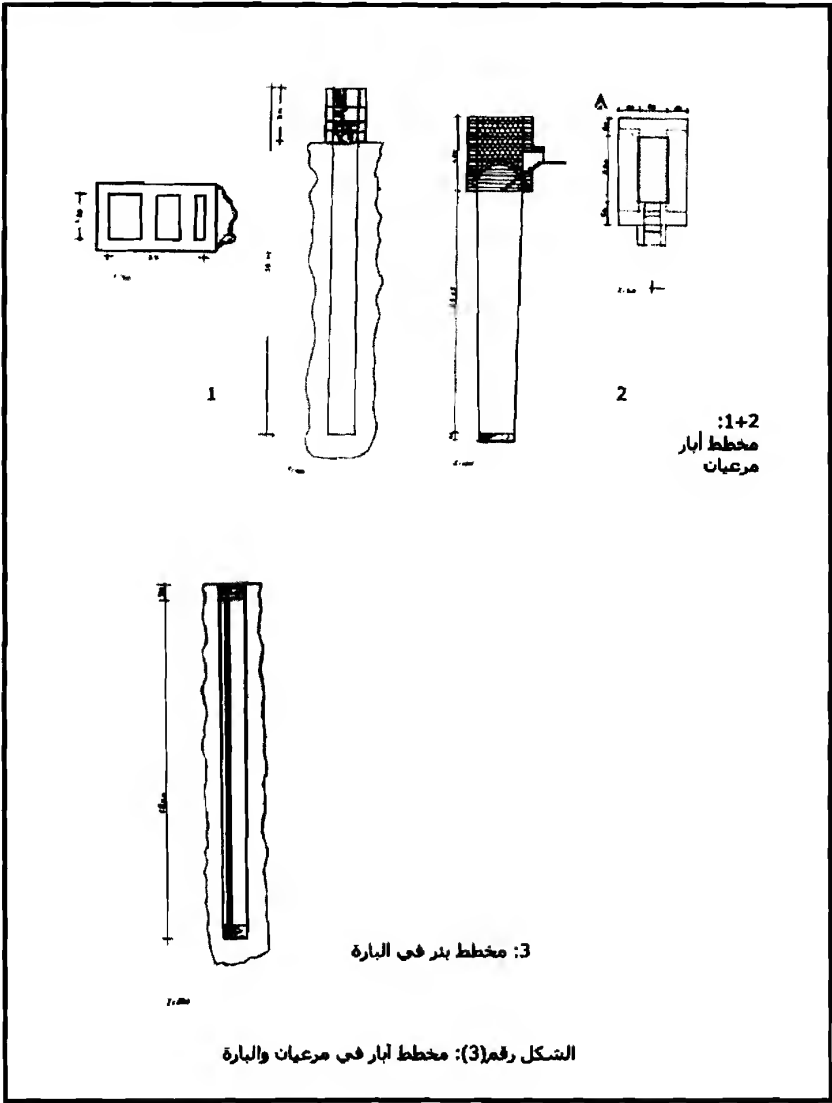
كما ساهمت عوامل أخرى إلى جانب المياه في استمرار الهجرة لعدة قرون من القرن السابع وحتى القرن العاشر، منها : الأحداث العسكرية، الأوبئة، الزيادة السكانية الغير متناسبة مع الإنتاج، التغير في الخطوط التجارية، قلة الطلب على منتجات المنطقة والزلازل ساهمت جميعها في الهجرة مع العلم أن هذه العوامل تتغير من فترة إلى أخرى.

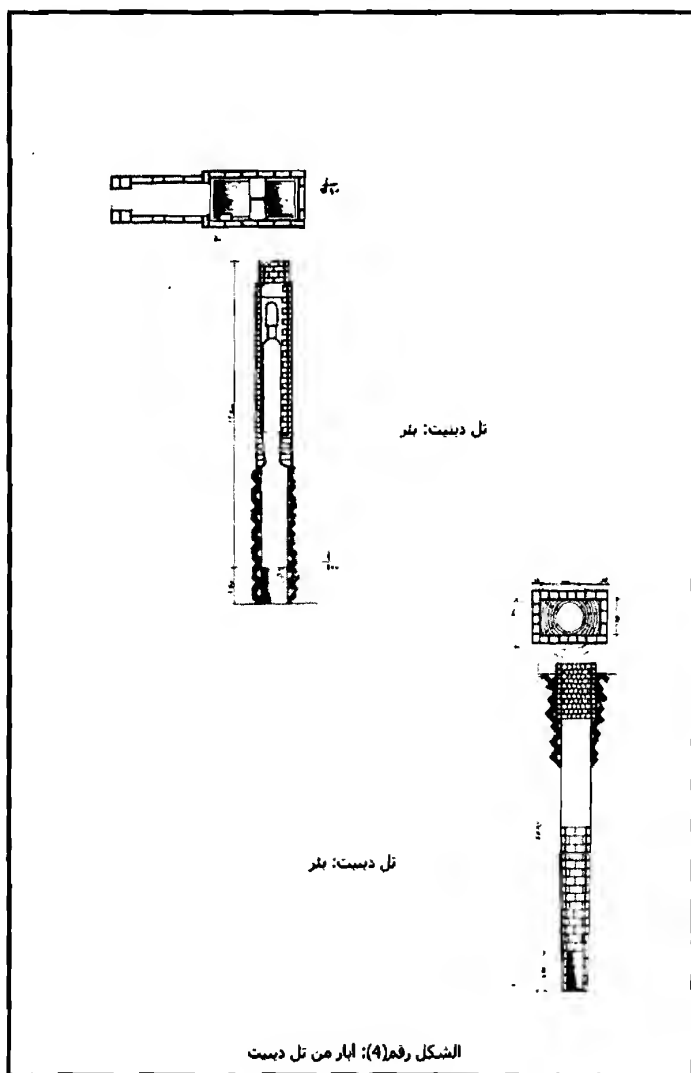
أما فيما يتعلق بعامل الماء، فقد عرفت المنطقة باستمرار شحاً بالمياه وهذا ما كان يدفع الناس للهجرة باستمرار عبر الزمن حتى أصبحت فرصة البقاء في العديد من القرى مستحيلة وهو ما نلاحظه من عدم وجود المياه في الكثير من القرى وبالتالي بقيت مهجورة إلى يومنا هذا بالرغم من وجود نشاطات زراعية (الزيتون-الكرمة) حولها أو عودة الحياة إلى بعض القرى من خلال تأمين المياه عن طريق الوسائل الحديثة وذلك بحفر آبار ارتوازية في بعض المناطق، أو جلب المياه عن طريق الآليات الحديثة وملء الخزانات كل فترة. خير مثال على ذلك، موقع البارة الذي بقي مأهولاً عبر العصور بسبب توفر المياه فيه بينما هجرت القرى المحيطة به بشكل مباشر ولم تعد الحياة إليها بسبب عدم توفر المياه حيث تحولت اليوم إلى مواقع أثرية ذات طابع سياحي.

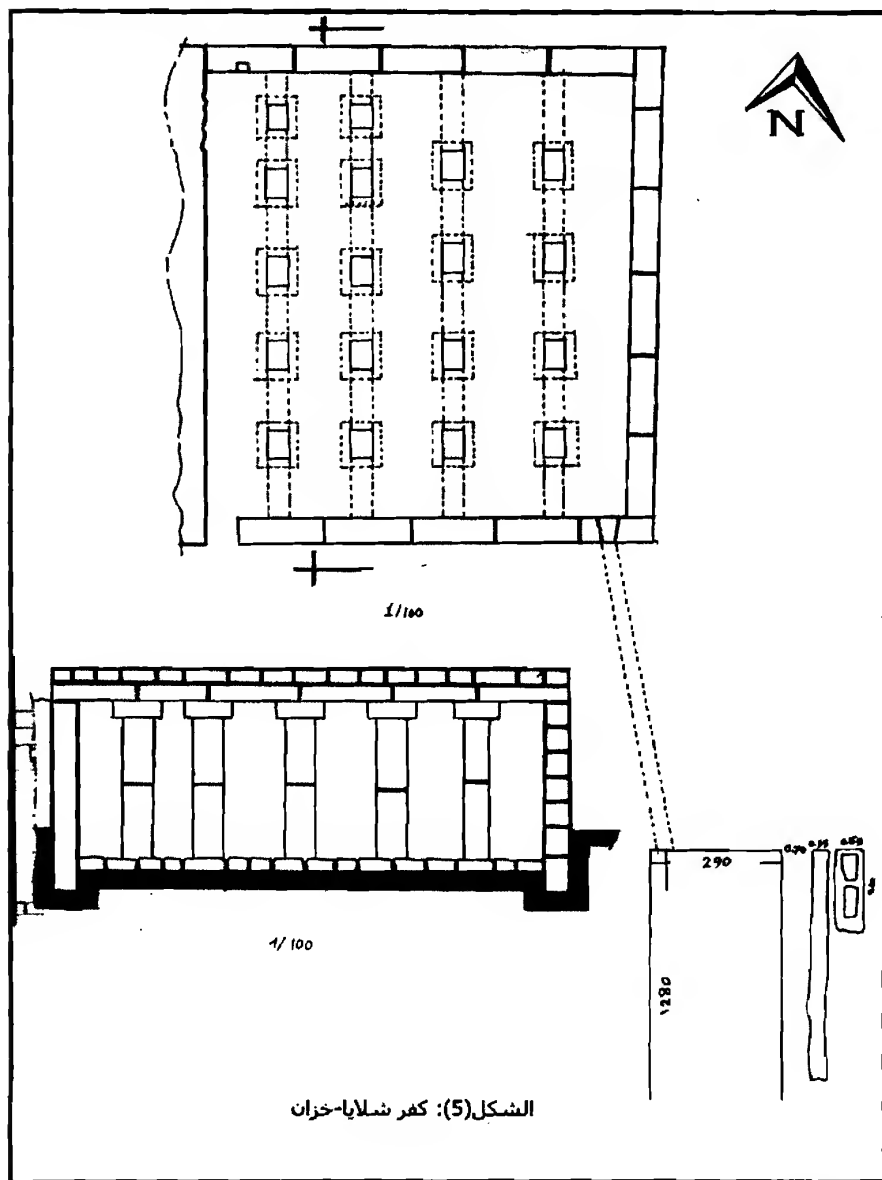


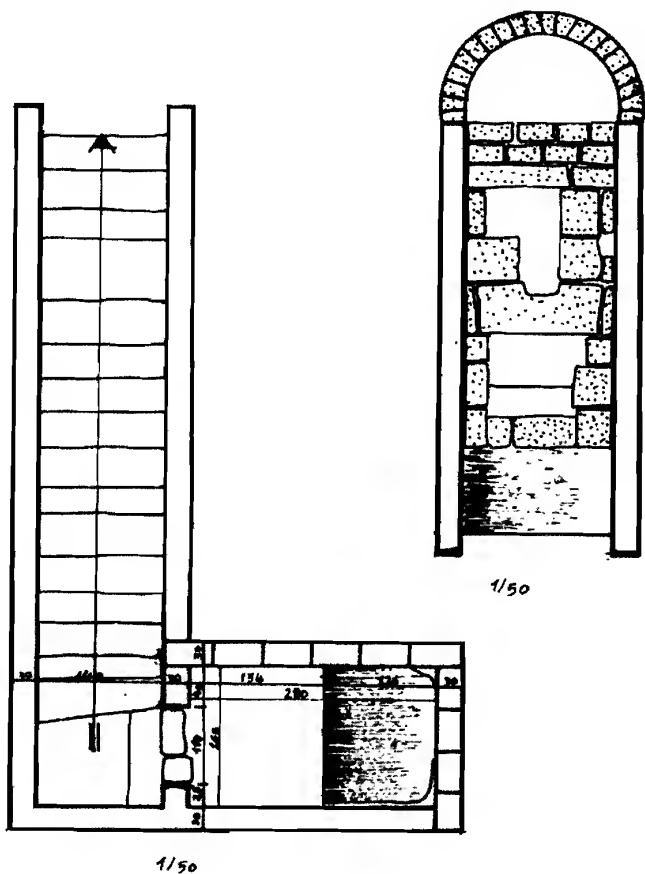


الشكل رقم(2): قرية سرجيلا

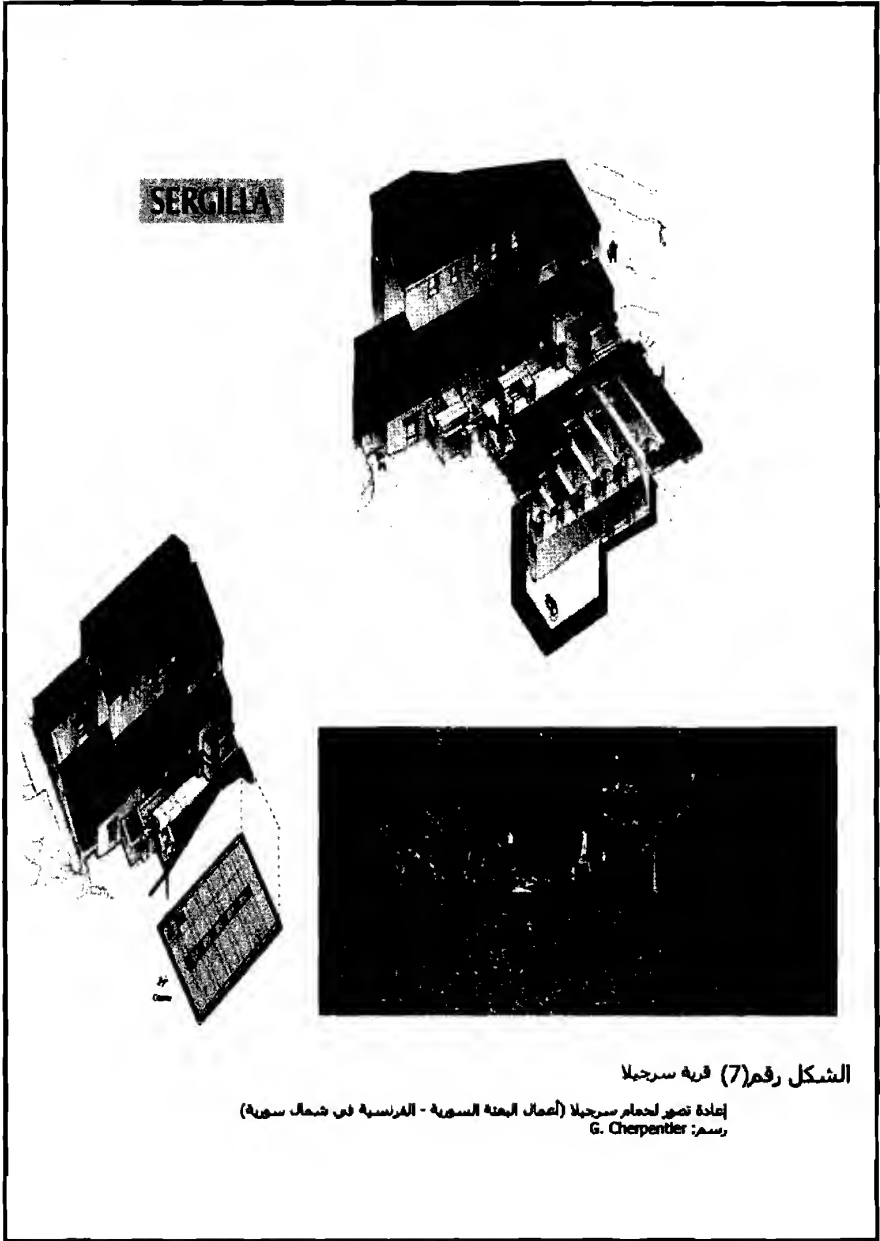








الشكل رقم(6): مخطط بئر في قرية نحلة



الهوامش

- (1) M.SARTRE, 1991, Villes et villages, *l'Orient romain*, L'univers historique, Paris.
- (2) M. De VOGÜE, *Syrie centrale, architecture civile et religieuse du I^{er} au VII^{ème} siècle*, 2vol, Paris.
- (3) H.C.BUTLER, 1920, *Publication of the Princeton University: Archeological expeditions to Syria, 1904-1905 and 1909*, Leiden.
- Id.*, 1929, Early Churches in Syria, Fourth to Seventh Centuries, completed By E.B.SMITH, Princeton.
- (4) J.MATTERN, 1933, *A travers les villes mortes de Haute Syrie*, MUSJ, XVII, 1, Beyrouth.
- (5) G. TCHALENKO, 1953, *Les villages antiques de la Syrie du nord*, 3 vol, Geuthner, Paris- 1979, *Eglises de village de la Syrie du Nord : I.*, planches, Paris- 1980, *Eglises de village de la Syrie du Nord*, vol.II, Album, Paris. Et : 1990, *Eglises syriennes a Bêma*, vol.III, Paris.
- (6) J.LASSUS, 1947, Sanctuaires chrétiens de Syrie, Paris.
- (7) G.TATE, 1992, *Les campagnes de la Syrie du Nord du II^{ème} au VII^{ème} siècle*, Geuthner, Paris.
- (8) G.TATE, 1992, p.335-342.
- (9) J-P.SODINI, G.TATE, B et S.BAVANT, J-L.BISCOP et D.ORSSAUD, 1980, Dehes (Syrie du Nord) campagnes I-III (1976-1978). Recherches sur l'habitat rural, *Syria*, 57, p.1-304.
- J-P.SODINI, Les églises de Syrie du Nord, in : *Archéologie et Histoire de la Syrie*, II, Sarrebruck, p. 347-372.
- J-P.SODINI et G. TATE, 1989, Maisons d'époque romaine et byzantine (Ile-VI^e siècle) du massif calcaire de Syrie du Nord. Etude typologique, *Colloque Apamée de Syrie*, P.377-393.
- G.TATE, 1983, Nouveaux travaux dans le Gebel Zawiyé, *AAAS*, T.33, Damas, p.243-257.

(١٠) - حول المعابد هذه المنطقة أنظر :

- O.CALLOT, La christianisation des sanctuaries romains de la Syrie du Nord, , *Topoi*, 7, 1997, p.734-750.
- P-L.GATIER, Villages et sanctuaries en Antiochène autour de Qalota, *Topoi*, 7, 1997, p.751-775.

(١١) حول العمارة الدينية المسيحية أنظر :

G. TCHALENKO, 1979, *Eglises de village de la Syrie du Nord* : I., planches, Paris.

Id., 1980, *Eglises de village de la Syrie du Nord*, vol.II, Album, Paris.

Id., 1990, *Eglises syriennes a Bêma*, vol.III, Paris.

A.NACCACHE, 1992, *Le décor des églises des villages d'Antiochène*, Geuthner, Paris.

A.NACCACHE, SODINI J-P., 1989, Le décor architecturale en Syrie byzantine, in : *Archéologie et Histoire de la Syrie*, II, Sarrebruck, p. 477-490.

L.PENA, P.CASTELLANA et R.FERNANDEZ, 1975, *Les stylites syriens*, Milan.

J-P.SODINI, Les églises de Syrie du Nord, in : *Archéologie et Histoire de la Syrie*, II, Sarrebruck, p. 347-372.

(١٢) حول العمارة الجنائزية أنظر :

M.GRIESHEIMER et A. NACCACHE, 1995, Les hypogées enclos par des chancels (Deir Sunbul, G.Zawiye, Syrie du Nord), *MUSJ*, 52, p.75-119.

(13) G.CHARPENTIER, 1994, Les Bains de Sergilla, *Syria*, T.LXXI, Paris, p.113-142. et 1999, *Les bains protobyzantins de la Syrie du nord "une transition entre thermes et hammams"*, Thèse de Doctorat, Versailles-Saint-Quentin-en-Yvline.

(14) O.CALLOT, 1984, *Huilleries antiques de Syrie du Nord*, Paris.

(١٥) حول هذا الموضوع أنظر :

ABDULKARIM M, BILDGEN P&A et GAUBERT J-P., 2002-2003, Les systemes d'alimentation en eau au voisinage et dans les terroirs des villages du Gebel zawiye, *AAAS*, 45-46, Damas, p.359-379.

ABDULKARIM M, BILDGEN P&A et GILG J-P., 2004, Comparaison des pontenialités naturelles d'accueil des Gebels siman et zawiye, vis-à-vis des choix d'implantation des sites antiques romano-byzantins de Syrie du Nord, *Photo-interprétation*, volume.40, Paris, p.27-35.

ABDULKARIM M, BILDGEN P&A et GAUBERT J-P., 2004, Télédétection et Géo-Archéologie : "Etude des caractéristiques

géologique, hydrogéologiques et des terroirs des villages antiques du gebel siman en Syrie du Nord, *Photo-interprétation*, volume.40, Paris, p.17-26.

(16) G.Tate, 1992, p.343-344.

(17) G. TCHALENKO, 1953, p.45-48 et p.64-65.

(١٨) قام المهندس عماد موسى مشكوراً برسم مخططات الآبار المنشورة مع هذا المقال.

(19) M.ABDULKARIM et al, 2002-3, p. 360-372.

(20) M.ABDULKARIM et al, 2002-3, p.374-376.